مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السادس
1989م.

دلالة التقليد في الثقافة العربية المغربية

الدكتور : هاشم الشريف
جامعة الفاتح - الجماهيرية العظمى

هناك شعور عند البعض يتمثل في العزوف عن كل ما يمت إلى أمتنا بسبب ، أو يكون ذا شبه بما يصدر عنها في أي قطر من أقطارنا المتعددة الواحدة مهما عظم شأن ذلك! ولست أحب هنا أن أجادل هذا البعض فيما يذهب إليه ويعتقده ، إذ ربما كان له من الأسباب بعض ما يبرر له هذا المسلك على غرابته وكرهنا له ، وأعني بالمسلك العزوف عن كل ما هو عربي أو التقليل من شأنه وخطره ، والإقبال في ذات الوقت على كل غريب طارىء مهما كان حقيراً أو تافهاً !

ولا ريب أن هذه علة مدمرة تصاب بها الأمم وتعاني منها المجتمعات أيام المحن وأزمان التردي والانتكاس . حيث تكون الأمة المصابة قد فقدت ثقتها بنفسها ، أو أنّ ما حلّ بها قد زعزع تلك الثقة وأضعفها ، لكنّ هذه الظاهرة على بروزها غير قادرة مهما كانت دواعيها على حجب الرؤية عن القلوب المبصرة .

ولعل من بعض محنتنا الشديدة أننا أحياناً وفي رصدنا لبعض الظواهر في مجتمعاتنا ترانا نشرق ونغرب بحثاً عن تعليل للظاهرة أو الظواهر ، ثم تكون العودة آخر المطاف بواحد من أمرين . .

إما بتعليلات مبهمة مشوشة غريبة تزيدنا فرقاً وقلقاً ، وقد يكون هذا مقصوداً لذاته !

وإما باعلان الخيبة وإقرار العجز وإظهار القصور عن تفسير الظاهرة التي شغلتنا ، والتي عادة ما نكون قد هوّلنا من شأنها ، وأعطيناها أكثر مما تستحقه من العناية ، ثم نختم ذلك الجهد المكثف بعلامة الاستفهام .

على أن الشيء الوحيد الذي نتجنب البحث فيه عن الأسباب التي يمكن أن تفسّر لنا الظاهرة أو الظواهر التي تشغل بالنا هو تاريخ أمتنا وتراثها على قربه منا وصدق جوابه لنا !

إن من يفعل هذا لا يعدو أن يكون أحد اثنين . جاهلاً ، أو مغرضاً . فإذا كان الأمل في الجاهل غير معدوم ، فقد يهتدي إذا طلب المعرفة ورغب في العلم وبصّر ، وليس المغرض بميئوس منه فالله قادر أن يهديه إن كان قد أراد له خيراً .

وقبل أن نبسط السؤال ونفتّش له في التراث والتاريخ عن الجواب ، يحسن أن نذكّر بمسلمة هي أننا أمة واحدة موحّدة في مشرق الوطن ومغربه . ﴿إنَّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[1] .

إن وعي هذه الحقيقة واحلالها محلها عند كل بحث في شأن من شؤون الأمة يوضح لنا من الأمور ما يمكن أن يخفى ، ويضع أيدينا على ما يفسّر لنا الظواهر التي تشغل بالنا ونبحث عن تفسير وتعليل لها ، ويسهل علينا إذا ما وعينا هذه الحقيقة أن ندرك منهج الحياة والسّلوك ونمط تفكير هذه الأمة التي نفاخر بالانتساب إليها ، ومن أسف أن أعداءنا قد اهتدوا إلى ما عمينا نحن عنه من أمور أمتنا البديهية ، فسهل عليهم التحكم والتوجيه والتشكيك ، الأمر الذي جعل البعض في حيرة يتلمس الهداية من الضلال والشفاء من الداء !

هل نستطيع بعد هذا الذي تقدم أن نضع أيدينا على جواب للسؤال الذي يشغلنا وهو . .

كيف جاءت إلينا العلوم والثقافة ومتى ؟

لا ريب أن الثقافة والعلوم قد جاءت إلينا مواكبة للفتح الإسلامي الذي حدا

---

(1) سورة الأنبياء : الآية 92 .

جحافله المؤزّرة عصبة من الصحابة والتابعين ، إذ الثابت تاريخياً أنه لا الرومان ولا من تولى بعدهم أمر المغرب ـ حاشا المسلمين ـ كانوا قد عنوا بنشر العلم والمعرفة بين السّكّان في المغرب ، حيث لم يكونوا يهتمون ببث العلم بين سكان البلاد الخاضعة لحكمهم ، حرصاً على بقائها في جبهاتها حتى يسهل عليهم حكمها ودوام السيطرة على أمورها[2].

أما أمر الفاتحين المسلمين فقد اختلف عما تقدم جد الاختلاف . وذلك طبيعيّ ومفهوم ؛ فالمسلمون لم يكن أبداً من أهدافهم استعباد الشعوب وتسخيرهم لخدمة الفاتحين ، بل كان هدفهم الأسمى ودافعهم القويّ الملحاح اخراج الأمم والشعوب من ظلمات الجهل والعمى إلى الهداية والعلم والنور ، وذلك بنشر عقيدة التوحيد التي تؤكّد قيمة الإنسان وكرامته وتعلي من قدره وتأبى خضوعه ، وتحرم عليه أن يذل لعزة غير الله جبينه ولو قطع وتينه .

هكذا وبهذا الإيمان باشر الفاتحون المسلمون مهمتهم الحضارية أول ما وطئت أقدامهم أرض المغرب ، كما كان دأبهم حيثما حلوا ، ولا غرو فقد كان أكثر الجيش الإسلامي الذي غزا أفريقية تحت إمرة عبد الله بن سعد بن أبي سرح من أصحاب[3] رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولا ريب أن بعض هؤلاء الصحابة كان من حفظة القرآن ورواة الحديث ، يعزّز هذا ما أثبته أبو سعيد الشماخي في كتابه « السّير » ، فقد جاء أن بعض أهالي البلاد الأفريقية كانوا يعترضون الجيش العربي الداخل إلى أفريقية ويكتبون من إملائهم ألواحاً من القرآن الكريم ويرجعون إلى منازلهم ، فإذا حفظوا ما في الألواح محوه ، ثم عادوا إلى الطريق ليملي عليهم من يلاقون وهكذا إلى أن يتموا حفظ كتاب الله الكريم[4].

ويحسن بنا أن نقف قليلاً عند هذا الخبر لكي نفتّش عن بعض دلالاته ، ومن هذه الدلالات التي تجدر الإشارة إليها . . المغاربة كانوا قوماً متعطشين للعلم والمعرفة التي حرموها طوال عهود البلاد الافريقية قبل مجيء الإسلام إليها.

ثانياً . . إن المسلمين من العرب الفاتحين لم يكن أبداً من أهدافهم الإبقاء على جهالة

---

(2) أليس الصبح بقريب : 65 .

(3) أبو العرب التميمي : 15 .

(4) كتاب السير : 142 .

أهل البلاد المفتوحة ، ليسلس لهم قيادهم ويتم تسخيرهم واستعبادهم شأن من حكم البلاد الافريقية قبلهم ، بل لقد كانت الرسالة السمحاء التي جاء بها الفاتحون المسلمون إنسانية حضارية تثقيفية ، أكثر غاياتها هداية الناس إلى الصراط المستقيم وتحرير الإنسان من ربقة العبودية لغير الله الخالق تعالى ، وكان سبيلها إلى تحقيق هذا نشر العلم والثقافة ، والجدال بالحسنى والقدوة والموعظة .

ثالثاً . . من دلالات هذا الخبر أيضاً أن معظم أفراد الجيش الإسلامي الداخل إلى بلاد المغرب كانوا من الحفاظ للكتاب الكريم والسنّة الشريفة المطهرة ، ولا ريب فقد روى لنا أبو العرب التميمي في كتابه (طبقات علماء افريقية) أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح حين خرج إلى افريقية غازياً ، كان أكثر جيشه من صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ[5] ولم يكن ليشغل هؤلاء الصفوة شيء غير القرآن وسنّة النبي عليه السلام ونشرهما في البلاد .

رابعاً . . يدل هذا الخبر الذي ساقه الشماخي في السير أيضاً أن التعليم في بلاد المغرب أيام الفتح الأولى قد اقتصر على كتاب الله العظيم كتابة وحفظاً وتلاوة ، وكان الاعتماد في كل ذلك على **الإملاء والكتابة في الألواح** ، كما هو واضح من رواية أبي سعيد المسطرة في كتابه « السّير »[6] .

ومن أسف أن الشماخي لم يكشف لنا فيما رواه عن اللغة التي كان المغاربة يتلقون بها ما كان يُملى عليهم من القرآن الكريم ليكتبوه في ألواحهم تمهيداً لحفظه واستظهاره ، لكن الذي لا ريب فيه أن القرآن الكريم لا يمكن أن يؤدى بغير اللغة العربية التي نزل بها موحى من السماء .

وإذا كان هذا كذلك ، فإن ما ذهب إليه المؤرخون القدامى من آراء عن أصل البربر صارت يقيناً لا يتطرق الشكُّ إليه .

ومعلوم أن المؤرخين الأقدمين من عرب وبزنطيين يجمعون على أن أصل البربر يعود

---

(5) ورقات : 80 .

(5) طبقات علماء أفريقية : 15 ، تاريخ المغرب الكبير : 2/10 .

(6) كتاب السير : 142 .

إلى القبائل المشرقية التي دخلت المغرب مهاجرة في ظروف تاريخية معينة قد تعرض لها المؤرخون فيما دونوه من أخبار الأمم[7] .

ويبدو أن ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هجرية أقدم المؤرخين الثقاة قال بنسبة البربر إلى الكنعانيين ، وقد جاءوا إلى المغرب من أرض فلسطين[8] .

أما ابن خلدون فقد استعرض جملة من الروايات القديمة عن أصل البربر ونسبتهم ، وكان أميل إلى الأخذ بالرّأي الذي أثبته الطبري بشأن نسبة البربر إلى الكنعانيين ومجيئهم من سواحل بلاد الشام[9] .

هذا في حين نرى ابن واضح الأخباري المتوفى بعد سنة ٢٩٢ هـ يثبت في تاريخه الكبير المعروف « بتاريخ اليعقوبي » ثلاث روايات تتعلق جميعها بأصل البربر . .

أول هذه الروايات ما ادعاه قوم من البربر والأفارقة من أنهم من ولد بربر بن عيلان بن نزار .

وثانيها دعوة آخرين منهم بأن أصلهم من جذام ولخم وكانت مساكنهم فلسطين ثم أخرجوا فعبروا النيل ثم غربوا وانتشروا في البلاد .

أما الرواية الثالثة فإنها تعود بنسبة البربر إلى اليمن ، وقد نفوا من اليمن إلى أقاصي المغرب . وقد التزم ابن واضح الأخباري جانب الحياد فلم يلزم نفسه بتأييد أيّ من هذه الآراء ، واكتفى بأن قال : « إن كل فريق يدعمون رواياتهم ، والله أعلم بالحقّ في ذلك »[10] .

وكما عدد ابن خلدون والمسعودي واليعقوبي الروايات المختلفة المتعلقة بأصل البربر ، أشار أبو الفداء إلى اختلاف الروايات في ذلك ، ثم قال . . والأصح أنهم من ولد كنعان ، قد تفرقوا بعد مقتل ملكهم وقد جاءت طائفة منهم إلى بلاد المغرب وسكنوها ، ثم أخذ يعدد قبائلهم الكثيرة والأماكن التي عمروها[11] .

---

(7) تاريخ المغرب العربي : 27 .
(8) تاريخ الطبري : 442/1 .
(9) تاريخ المغرب العربي : 28 .
(10) تاريخ اليعقوبي : 165/1 .
(11) المختصر في أخبار البشر : 97/1 .

وقد احتفظ لنا العلامة ابن خلدون برأي مالك ابن المرحل الذي يجعل البربر أخلاطاً من قبائل عرب الجزيرة ؛ وأرجعهم إلى أصول حميرية ومضرية وقبط وعماليق وكنعانية وقرشية اجتمعت في الشام[12].

وقد رجّح هذا الرأي أيضاً بعض المؤرخين المعاصرين[13].

وليس بمدفوع بعد هذا الذي تقدم أن نزعم أن بعض قبائل البربر قد احتفظت بلغتها التي جاءت معها من المشرق ، وعلى ذلك فإن لغة الفاتحين العرب المسلمين لم تكن غريبة عليهم ولا مجهولة لديهم ، وإن إملاء القرآن الكريم وكتابته في الألواح ـ حسب ما رواه الشماخي في السير ـ قد كان ولا ريب باللغة العربية لغة القرآن المجيد.

وهذا ما جعل التفاهم أيضاً بين الفاتحين والقادمين من المشرق وبين البربر القاطنين في بلاد المغرب سريعاً سهلاً ميسوراً ، كما عجل بالتقريب ومكّن للثقافة الإسلامية ، وجعل السيادة للغة العربية على سائر ما كان في البلاد المغربية قبلها من لغات .

والخامس من هذه الأمور المستفادة من رواية الشماخي . . أن كتابة القرآن المجيد في الألواح تقليد أثيل قديم في بلاد المغرب ، أملته الحاجة أول أمره ، ثم تبين بعد ذلك أنه أنجع طريقة لتحفيظ الناشئة المسلمة القرآن الكريم ولتعليم الإملاء والخط جميعاً ، وعلى ذلك فقد كان حرص أسلافنا رحمهم الله على هذا التقليد الحميد شديداً وهو بحمد الله ما زال يعيش معنا وإنا لنرجو له الدوام والبقاء ولأعدائه التبور والفناء .

ولعل آخر ما يمكن أن يدلنا عليه هذا الخبر . . أن نشر الدّين الإسلامي وتعليم العربية وبث الثقافة وإن كانت أسمى أهداف الفاتحين ، إلا أنّها لم تتخذ الإكراه وسيلة للتحقيق ، وإنما ترك ذلك لرغبة أهالي البلاد ، وقد هدتهم الفطرة السّليمة إلى الدّين وشرحت صدورهم له ، ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾[14].

وقد صادفت هذه الرغبة في التعلم عند أهل البلاد اخلاصاً ونية صادقة لدى الفاتحين ، فلم يدخروا وسعاً في الأخذ بيدهم نحو النور ؛ وفيما سجله أبو العرب التميمي في كتابه « طبقات علماء أفريقية » نرى أن القائد المسلم عقبة بن نافع الفهري مؤسس

---

(12) تاريخ المغرب العربي : 26 ، ابن خلدون .

(13) تاريخ المغرب العربي : 28 .

(14) سورة الأنعام : الآية 125 .

الحاضرة الإسلامية الأولى في بلاد المغرب القيروان والتي صارت فيما بعد أهم مراكز العلم والثقافة في المغرب المسلم ، نراه وقد صحبه في غزوته خمسة وعشرون من أصحاب[15] النبيّ ـ ﷺ ـ ولا ريب أن عناية هؤلاء الصحابة كانت منصبة على القرآن الكريم والسنّة المطهرة ، وهي عناية اعتمدت على الدقة في النقل وصحة الرواية وتحري الصواب.

كذلك فقد كان مع معاوية بن خديج خلق كثير من المهاجرين الأولين[16] ، وهؤلاء جميعاً هم الذين حملوا معهم بذور العلم والثقافة إلى بلاد المغرب ، وبفضلهم أصبحت القيراون أهم مركز للثقافة والعلوم الإسلامية ، واتيح لطلاب المعرفة أن يتجمعوا فيها من أرجاء المغرب والأندلس على السّواء ، وقد شهدت سوق العلم فيها رواجاً لشهرة من تصدر للتدريس فيها بعد أن ارتووا من المناهل الأصيلة الثرة في بلاد المَشْرق المُشرِق ؛ في الحجاز ، والعراق ، والشام ، وأرض الكنانة لاعدمناها.

ولحسن الحظ فإنّ بعض كتب التراجم والسير وطبقات الرجال التي سلمت من عوادي الزمان قد احتفظت لنا بأسماء ثلة من هؤلاء الصحابة والتابعين والمهاجرين الذين دخلوا أفريقية غازين لنشر عقيدة التوحيد وهداية الضالين إلى الصراط المستقيم [17] .

ومن بين هؤلاء الصحابة الذين ذكروا الصحابي الجليل أبو زمعة البلوي ، عبد الله بن آدم ، وقد غلبت عليه كنيته فعرف بها ، وهو من العصبة التي شهدت بيعة الرضوان وبايع الرسول ـ ﷺ ـ تحت الشجرة ، وشهد فتح مصر ، ودخل أفريقية غازياً مع معاوية بن حديج سنة ٣٤ هـ .

وقد نقل محمد بن صالح الكناني عن الدّباغ قوله . . إنه « لم يثبت أن أحداً مات من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ودفن بالمغرب سواه ، وقد أمرهم أن يستروا قبره ، ووضعت معه قلنسوته فيها من شعر رسول الله ـ ﷺ ـ[18] ويكفي أبو زمعة أن يكون ممن نزل بحقهم قوله تعالى . . ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾[19].

---

(15) طبقات علماء أفريقية : 17 .

(16) المصدر السابق : 17 .

(17) طبقات علماء أفريقية : 16 - 19 ، معالم الإيمان 71/1 .

(18) تكميل الصلحاء والأعيان : 3 .

(19) سورة الفتح : 18 .

وقد حدد أبو العرب التميمي وأبو بكر المالكي المكان الذي قبر فيه أبو زمعة البلوي - رضي الله تعالى عنه - وهو مقبرة باب تونس ، وقد شهر المكان باسمه « البلوية »[20] .

ويشهد التاريخ أن الفاتحين من أتباع محمد بن عبد الله - ﷺ - قد عملوا على نشر الإسلام والعربية من أول ما وطئت أقدامهم أرض المغرب شأنهم دائماً حيثما حلوا فاتحين ، وهذا ما اثبته المؤرخون المغاربة أنفسهم ، فابن عذارى المراكشي يذكر أن القائد العربي موسى بن نصير كان قد ولى على طنجة وأعمالها مولاه طارقاً قبل أن يعود من السّوس إلى أفريقية وترك مع طارق جيشاً كبيراً من الذين حسن إسلامهم ، كما ترك معهم جملة من العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام [21] .

وكان عقبة بن نافع قد صنع ذات الصنيع - قبل موسى - حيث خلّف بعض أصحابه ليقوموا بتعليم المغاربة القرآن، ومن هؤلاء شاكر صاحب الرباط المشهور باسمه وقد تركه عقبة في منتصف المسافة ما بين مراكش وموجادور الحالية [22] .

ولما استقر المسلمون في المغرب بدأوا يمصرون الأمصار ويشيدون للعلم والثقافة دوراً خاصة بذلك ، إلى جانب ما كان يقام في المساجد من حلقات البحث والدرس والمناظرة . وهكذا فقد رأينا القائد العربيّ حسّان بن النّعمان الغسّاني الذي كان والياً على مصر قبل أن ينتدبه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان للقيام بالمهمة الشاقة وهي إتمام فتح بلاد المغرب والتمكين للإسلام فيه ، فما أن تم له فتح المغرب والقضاء على جيوب الردة والضلال المعشّشة فيه ، وهذه على ما يبدو آفة قديمة عانى منها مغربنا العربي وما زال . أقول ما أن تم للقائد حسّان ذلك حتى بادر إلى وضع الأسس المكينة لدولة الإسلام في بلاد المغرب ، هذه الأسس التي ضمنت أن يظل المغرب العربي أبداً مسلماً عقيدة عربياً لساناً ووجداناً ، ولقد تمثلت هذه القواعد فيما أنشأه القائد الفاتح حسّان من مساجد في المدن والقرى ، وما عينه فيها من قراء وفقهاء لتعليم المواطنين ، وما أقامه من مدارس ابتدائية بجانب كل مسجد لتعليم ناشئة المسلمين قواعد دينهم وتحفيظهم كتاب الله تعالى، كما دوّن حسّان الدواوين وفرق الجيش على الثغور وجعل عطاءهم من بيت مال المسلمين واختار العمال والقضاة ممن عرف

---

(20) طبقات علماء افريقية : 17 ، رياض النفوس : 55/1 .

(21) البيان المغرب : 42/1 .

(22) تاريخ المغرب العربي : 165 .

بالتقوى وشهد له بالاستقامة والورع والصلاح، كما لم تفته العناية بالأمن، فقد حققه في المدن الحواضر والبوادي على السّواء ، واختار لهذه المهمة رجالاً امناء تحقّق للشعب في المغرب على أيديهم ما فقدوه سنيناً طويلة من راحة بال وطمأنينة نفس وأمن على الأرواح والأموال والأعراض فاتجهوا جميعاً إلى العلم والبناء .

كان اختيار حسّان بن النعمان الغساني للتابعي الجليل حنش بن عبد الله الصنعاني ليكون عاملاً على الزكاة تتويجاً لأعمال القائد المؤزر الجليلة [23] ، فقد جمع حنش بن عبد الله كل الصفات الحميدة من فضل وتدين وعلم ونزاهة وحنكة وجهاد بالسيف والقلم في سبيل العقيدة السمحاء .

ففي ما يخص العلم ذكر أنه كان يروي عن جماعة من صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ الأبرار ، في مقدمتهم علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وأبو الدرداء ، ورويفع بن ثابت الأنصاري دفين البيضاء رضوان الله عليهم أجمعين .

وحدّث عن حنش جم غفير ، منهم ابنه الحارث بن حنش ، والحارث بن يزيد ، وقيس بن الحجاج ، وأبو مرزوق حبيب بن الشهيد الفقيه مولى عقبة بن فجرة التجيبي المصري الذي سكن طرابلس الغرب [24] .

وقد جاء حنش بن عبد الله إلى أفريقية غازياً مع رويفع بن ثابت الأنصاري وكتب له أن يخرج ثانية غازياً من أرض المغرب إلى الأندلس بصحبة موسى بن نصير ، وإلى حنش نسب بناء مسجد سرقسطة وتأسيس جامع قرطبة في الأندلس ، وفي جذوة المقتبس أن حنش بن عبد الله أول من ولي عشور أفريقية في عهدها الإسلامي المجيد ، وقال أبو بكر المالكي في كتاب الرِّياض . . « إن لحنش بن عبد الله الصنعاني بأفريقية آثاراً ومقامات ، وإنه قد سكن مدينة القيروان واختط بها داراً ومسجداً ينسب إليه في ناحية باب الريح ، وإنه قد قضى بأفريقية سنة مائة هجرية »[25] .

فإذا قلنا بعد كل ذلك إن أهم ما حمل المسلمون معهم إلى المغرب هو العلم ممثلاً في القرآن الكريم أصبنا كبد الحقيقة ، فقد بدأت بلاد المغرب تخطو خطواتها الثابتة الموفقة نحو

---

(23) تاريخ المغرب الكبير : 165/1 .

(24) التاريخ الكبير 1/2 :92 ، جذوة المقتبس : 189 ، تاريخ العلماء : 148 ، رياض النفوس : 78/1 .

(25) جذوة المقتبس : 189 ، رياض النفوس : 79/1 .

المعرفة والثقافة معتمدة على القرآن وعلومه ، وزاد من سرعة الانطلاق نحو تحقيق هذه الغاية السامية ، إصرار الفاتحين على أن تستبدل البلاد المغربية بغابرها المظلم المدلهم مستقبلاً نيراً مشرقاً وضاحاً ، فدُعِّمَت هذه الانطلاقة بوصول البعثة التعليمية التي أوفدها عمر بن عبد العزيز رحمه الله والمؤلفة من عشرة من كبار التابعين ليتولوا مهمة تعليم المغاربة اللّغة العربية والقرآن وعلوم الشريعة والإسلام ، فما أن حطوا رحالهم في القيروان حتى سارعوا إلى بناء دور لسكناهم ، والحق بكل دار مسجد للعبادة وكتاب لتحفيظ ابناء المسلمين القرآن وتعليمهم اللغة العربية[26] .

ويبدو من الأخبار المدونة أن القيروان لم تكن خلوا من الكتاتيب التي يتعلم فيها الصبيان قبل مجيء هؤلاء التابعين الأبرار ، لكنّ مجيئهم لغرض التعليم يؤكّد وجود خطة مرسومة ومنهج محدد مقرر مدروس ضمن سياسة الدولة الإسلامية هدفه تعريب بلاد المغرب وبث عقيدة التوحيد فيها ، وذلك ما تمّ بالفعل بعد أمد ليس بالطويل .

يؤكد وجود الكتاتيب في القيروان قبل وصول البعثة التابعية ما جاء في المصادر الإسلامية من خبر ـ في سياق ترجمة سفيان بن وهب الخولاني الصحابي الجليل ـ يتصل اسناده بغياث بن أبي شبيب ؛ قال : « كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ـ ﷺ ـ يمر بنا ونحن غلمة في الكتّاب، فيسلم علينا ، وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه »[27] .

فإذا علمنا أن مجيء الصحابي الجليل سفيان بن وهب الخولاني إلى بلاد المغرب كان في زمن خلافة عبد الملك بن مروان أي خلال السنة الهجرية الثامنة والسبعين ، وأن وفاته كانت سنة ثنتين وثمانين ، وقر عندنا أن الكتاتيب قد أُنشئت وكثرت في المغرب بعيد الفتح وفي عهد مبكر ، وليس في هذا ما يدعو إلى الشك أو يحمل على الاستغراب ؛ لأن المسلمين كانوا قد عرفوا الكتاب في مشرقهم قبل هذا الأوان . ومن الخبر الذي رواه ابن قتيبة في المعارف نعرف أن علقمة مولى الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق السيدة عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ كان له كُتّاب يعلم فيه النحو والعربية والعروض[28] . كذلك فإنّ القاضي ابن

---

(26) ورقات : 78/1 .

(27) الاستيعاب : 631/2 ، رياض النفوس : 59/1 ، معالم الإيمان : 151/1 ، ورقات : 79/1 ، التاريخ الكبير : 109/4, 88:2/2 ، الإصابة : 58/2 ، أسد الغابة : 323/2 ، فتوح مصر وأخبارها : 307 .

(28) المعارف : ضحى الإسلام : 50/2 .

خلكان قد نصّ في كتابه « وفيات الأعيان » على أن أبا مسلم الخراساني (١٠٠ ـ ١٤٦) كان يختلف إلى الكتّاب في صباه[29] .

ونحن نجد أيضاً في كتاب الأغاني لأبي الفرج أن إبراهيم الموصلي المغني المشهور (١٢٥ ـ ١٨٨) قد أسلم إلى الكُتّاب وكان يعاقب بالضرب والحبس لاخفاقه في التعلم[30] .

هذا عن الكتّاب أما المسجد ، فقد كان أكبر المعاهد التعليمية في الحضارة الإسلامية ، فهو إلى جانب قيامه بالمهمات الدّينيّة والحيوية الأخرى المعروفة ، كان بمثابة الجامعة يتلقى فيه طلاب العلم جميع العلوم الإسلامية التي يرغبون في دراستها ، وكان الطالب يلتحق بالمسجد للدراسة بعد أن يتم حفظ القرآن الكريم في الكتّاب ، يؤكد هذا ما سطّره ابن عبد البر القرطبي المتوفي سنة ٤٦٣ هـ ، من أن الإمام محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤) قال . . « كنت يتيماً في حجر أمي فدفعتني في الكتّاب ، ولم يكن عندها ما تعطي المعلم ، فكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام ، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها ، ولم يكن عند أمي ما تعطيني اشترى به قراطيس ، فكنت إذا رأيت عظماً يلوح آخذه فأكتب فيه فإذا امتلأ طرحته في جرة كانت لنا قديماً»[31] .

وإذا كان الكتّاب في المغرب قد اقتصر أول عهده على تحفيظ القرآن والإملاء ، فإن الكتّاب في المشرق قد اهتم أيضاً إلى جانب ما ذكر بتعليم علوم أخرى ، حتى لقد أصبح الكتّاب مدرسة يعلم فيه اللغة والأدب والنحو والتاريخ والحساب .

وكما كانت الكتاتيب كثيرة متعددة ، كانت تنسب على ما يبدو إلى الفقهاء المعلمين فيها ، وكان الحبس والضرب من وسائل العقاب المشروعة لدى المعلمين يأخذون لها الصبيان المقصرين في الحفظ أو المخلين بالسّلوك . وبين أيدينا لوحات فنية خلفها لنا الشعراء يمكن لنا أن نتخذها وثيقةً تاريخية تؤكد ما ذهبنا إليه . من هذه اللوحة الفنية

---

(29) وفيات الأعيان : 325/2 .

(30) الأغاني : 157/5 .

(31) جامع بيان العلم : 98/1 ، ضحى الإسلام : 51/2 .

الطريفة التي رسمها الحسن بن هانىء يصف فيها مشهداً لغلام في مكتب حفص وقد رفعت رجلاه للفلقة لبلادته وعدم حفظه لوحه[32] :

إنـي أبصرت شـخـصـاً قـد بـدا مـنـه صـدود
جـالـسـاً فـوق مـصـلى وحـوالـيـه عـبـيـد
فـرمـى بـالـطرف نـحـوي وهـو بـالـطرف يـصـيـد
ذاك في مـكـتـب حـفص إن حـفـصـاً لـسـعـيـد
قـال حـفص أجـلدوه إنـه عـنـدي بـلـيـد
لم يـزل مـذ كـان في الـدّ رس عـن الـدرس يحـيـد
كـشـفـت عـنـه خـزوز وعـن الخـزّ بـرود
ثـم هـالـوه بـسـير لـيّن مـا فـيـه عـود
عـنـدهـا صـاح حبـيـبـي : «يـا مـعـلم لا أعـود!»
قـلت يـا حـفص اعـف عـنـه إنـه سـوف يجـيـد

ولوحة أخرى لنفس الشاعر يصف غلاماً يتعلم التّهجي في مكتب لم يحدده هذه المرة[33] :

إن في المـكـتـب خـشـفـا جـعـلت نـفسي فـداه
شـادن يـكـتـب في الـلو ح لـتـعـلـيم هـجـاه
كـلـما خط «أبـا جـا د» قـراه فـمـحـاه
بـلسـان ؛ فـتـراه الـدّ هـر قـد سـوّد فـاه

وحال ما استقر المسلمون في أفريقية بدأوا يخططون المدن ويبنون المساجد والكتاتيب ـ كما كان دأبهم في البلاد التي فتحوها ـ وبدأ العلم ينساب رويداً رويداً يقشّع سحب الجهل ويطوي غياهب الظلام الذي ران على العقول ، وما كاد القرن الهجري الأول ينصرم حتى وضع المنهج وأحكمت الخطة ، وبدأ المعلمون يتدفقون من المشرق في موجات متلاحقة كما رأينا حتى تم بمشيئة الله تعالى ترسيخ الإسلام وتعريب جملة السّكان ، فاضحت البلاد

(32) ديوان أبي نواس : 330 ، ضحى الإسلام : 51/2 .
(33) نفس المصدر : 331 .

مسلمة عقيدة وإيماناً عربية لساناً وإحساساً ووجداناً ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله ربِّ العالمين﴾[34] .

هكذا جاءنا العلم والثقافة مع الإسلام من منبعه في المشرق حمله الفاتحون الموحدون فعمرت البلاد وازدهرت ، وآتت الثقافة أكلها وأينعت شجرتها بفضل حدب المشارقة وجد المغاربة ، وبذا صار المغرب والأندلس بعد زمن ليس بالطويل دار علم ومكرع ثقافة ، وهكذا صارت القيروان وغيرها من حواضر المغرب والأندلس مصادر للعقيدة ومنارات للعلوم ومشاعل للحضارة تشد إليها الرحال من كل مكان في الشرق والغرب على السواء[35] .

نستطيع بعد هذا الذي تقدم وكشفت عنه النّصوص أن نطمئن ونفهم السّر في تعلق المغاربة والأندلسيين بالمَشْرِق المُشْرِق وأهله ، كما نستطيع أن نعقل وندرك البواعث الخفية الملحة التي تحملهم على تقليد المشارقة ومحاكاتهم في جميع ما يصدر عنهم من خير وأحياناً شر أيضاً ! إن تقليد المغاربة والأندلسيين للمشارقة ليس صادراً عن شعور بالنقص أو التخلف كما يحب بعض الباحثين أن يسميه[36] ، ولكنّه فيما نرى يصدر عفواً إنه يؤكد الدعوة ويعطي البرهان لمن يشك في صحة نسبة هؤلاء لأولئك .

إنهم حين يؤكدون تفوقهم لا يعوضون تخلفاً عن المشارقة يحسّون به ، ولكنهم يثبتون أنهم من نفس الأرومة يتمتعون بذات القدرات ويتصفون بعين الصفات رغم نأي الدار وبعد المنزل عن المنبع في المشرق ، وذلك ما أشار إليه الفقيه العلامة ابن حزم الأندلسي في رسالته[37] . وإن تعصب المغاربة والأندلسيين للدين وتعلقهم بمذهب إمام دار الهجرة ليس فيه ما يدعو للدهشة أو العجب ، فقد عرف العربي منذ القدم بأنه محافظ شديد المحافظة على تقاليده وموروثه ، فلا عجب إذا رأينا من عاش منهم بعيداً عن موطنه الأصلي لا يتوانى عن إثبات ذاته وتأكيد أصله وهي صفة لا ريب محمودة تحفظ الكيان وتصون الذات وما

---

(34) سورة الأنعام : الآية 45 .

(35) المعجب : 56 ، البيان المغرب : 1/ 21، تاريخ المغرب الكبير : 28/2 .

(36) الأدب الأندلسي : 53 .

(37) فضائل الاندلس : 19 .

لها ، من المسخ أو التشرذم والذوبان ، وقد تحدث عن هذه الخلة وأفاض الاستاذ نجيب محمد البهبيتي في مؤلفه الفريد الشائق « تاريخ الشعر العربي »[38] .

وعلى هذا فإن تعلق المغاربة عموماً والأندلسيين بمذهب مالك من أوضح الأدلة على أنهم قد أرادوا تأكيد الهوية العربية وإظهار الخصائص وإبراز الصفات التي تجري في عروقهم ودمائهم ، ولا يعيبهم ما قد يرى لهم من ترخص في بعض الأمور فإن لذلك نظيراً ومثيلاً عند العرب في المشرق أيضاً . . في العراق والمدينة على السواء .

كذلك فإن تعصبهم للعربية لم يكن تعصباً ظاهرياً فحسب كما يذهب إلى ذلك الدكتور أحمد هيكل[39] ، وإلا لما كان هذا الانكبّاب والعناية الفائقة بالنحو وسائر علوم اللغة والأدب تعلماً ودراسة ونقداً وتمحيصاً ، وإذا كانت لغة حياتهم اليومية قد اختلطت بشيء من أعجمية أهل البلاد أو أنه قد شابها بعض التحريف عن الفصحى ، فليس هذا ما يعاب عليهم أو يزري بهم ، إذ إن هذه ظاهرة عرفها العرب والعربية حتى في مهدهم الأول .

ويبقى انحيازهم للأدب التقليدي وتعصبهم له واستيعابهم لجميع اتجاهاته ومذاهبه وحفظهم لأصيل مصادره وصدورهم فيما ينشؤون أو يؤلفون عنه ومنه[40] دليل آخر يؤكد الأصالة والأثالثة ويدحض كل المزاعم غيرها ، ولا ينال من هذا أو ينقص منه اختراع أشكال وأنماط جديدة لم يكن للعرب سابق معرفة لها ، ويكفي أنها عربية لغة ومرمى ، رغم أن بعض محدثيها من المستعربين .

ولنا في تراثنا الأدبي واللغوي والفني المشرقي أمثلة كهذا الذي حدث في الأندلس للعرب ، ففي شعر الشعراء العرب الذين عايشوا الفرس بعض زمانهم مثلاً نلحظ بعض آثار الأمة الأجنبية في ذلك الشعر ، فما بالك بأثر أمة ومجتمع على أدباء عاشوا وسط مجتمع لأمة أجنبية ، لها ما للأمم من التقاليد في الثقافة والفن والحياة ، وقد اندمجوا فيها واندمجت فيهم فاصطنعوا مالها كما اصطنعت مالهم من تقاليد وأعراف .

ولا سبيل إلى نكران الحقيقة القائلة إن تعلق المغاربة بالمشرق وأهله قديم وإن حبهم

---

(38) تاريخ الشعر العربي : 74 - 75 .

(39) الأدب الأندلسي : 53 .

(40) المرجع السابق : 40 .

لهم غلاّب جامح ، تجاوز في بعض الأحيان الحد المعقول حتى أَلْحَقَ بنوابغ المغرب الحيف ، الأمر الذي حمل بعضهم على رفع صوته بمرّ الشكوى والعقاب من الحيف الذي لحقهم من ذويهم بسبب انصرافهم الكلي إلى المشرق والمشارقة حيناً من الدّهر[41] . وقد رأينا قاضي الجماعة منذر بن سعيد البلوطي يجهر بمرّ شكواه بين يدي الخليفة عبد الرحمن الناصر وكبار رجال دولته[42] .

كذلك فإن الفقيه ابن حزم قد جاهر بالشكوى أيضاً مما لحق به بسبب تعلق أهل بلده بالمشارقة وسجل ذلك في هذه الأبيات الصادقة المعبّرة[43] . .

أنا الشمس في جوّ العلوم منيرة ... ولكنّ عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع ... لجد على ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابة ... ولا غرو أن يستوحش الكلف الصّبّ
فإن ينزل الرحمن رحليَ بينهم ... فحينئذ يبدو التأسّف والكرب

وهكذا نرى الفقيه أبا محمد بن حزم حتى وهو يشكو جحود مواطنيه يغلبه كلفه بالمشرق وتعلقه بأهله ، ولا غرو فالعقيدة واحدة والمنبع الفكري واحد ، وهذا ما طوى جميع ما قام حائلاً من حواجز الحدود وخلافات السياسة وأنانيات الحكام ، إذ الفكر لا يعبأ بالحدود ولا يقيم للساسة والسياسة وزناً .

ولعل ما قصه أبو بكر الزبيدي من أمر اهتمام القاضي عباس ابن ناصح بشعر وشعراء المشرق يكفي للدّلالة على مدى اهتمام الأدباء والمفكرين بكل ما هو مشرقي ، وملخص الخبر أن عبد الوهاب بن عبّاس بن ناصح حدث عن أبيه قائلاً كان عباس بن ناصح لا يقدم من المشرق قادم إلا كشفه عمن ظهر في الشعر بعد ابن هرمة ، فأتاه رجل من التجار وأعلمه بظهور أبي نواس وأنشده من شعره قصيدتين ، فقال عباس بن ناصح : « هذا أشعر الجنّ والإنس والله لا حبسني عنه حابس » وسافر إلى المشرق والتقى بالحسن بن هانىء وبقي في ضيافته عاماً عاد بعده إلى الأندلس[44] .

---

(41) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : 2:1/1 .
(42) جذوة المقتبس : 326 ، تاريخ النقد الأدبي في الاندلس : 37 .
(43) المصدر السّابق : 292 .
(44) طبقات النحويين واللغويين : 285 - 286.

وبعد فقد ظهر جلياً واضحاً أن الثقافة المشرقية هي الأم الحنون المرضعة والأب الشفيق الرحيم للثقافة المغربية عموماً ، وقد أصاب كبد الحقيقة من قال قديماً . .

« من شابه أباه فما ظلم »

إن تعلق المغاربة والأندلسيين عموماً بالمشرق وأهله ، وهو تعلق الفرع بالأصل ، مفهوم ومشروع ومبرر ، وأن ما نعيشه ونراه من اتجاه الثقافة المغربية نحو الأصول الأصيلة المشرقية وترسم خطاها فيما تصدر عنه ، إنما هو سلوك طبيعي ومنحى سوي لا سبيل إلى دفعه ولا محيد عنه ولا عاصم منه ، وأعجب العجب أن يكون سواه .

إنه سلوك توجهه العقيدة وتهيمن عليه ، ويتحكم فيه الطبع السّليم والميراث القويم ، فإذا جاء مغايراً لما تقتضيه هذه الثوابت من الأصول كان خارجاً على ما تقتضيه الجبلّة شاذاً عن المنطق والأصول والمألوف ، ليس فيه من خير ينتفع به الناس .

مصادر البحث

المعجم المفهرس لالفاظ القرآن : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب المصرية 1364 .
كتاب التاريخ الكبير : محمد بن إسماعيل البخاري ، حيدر آباد ـ الدكن 1363 .
رياض النفوس : أبو بكر عبد الله المالكي : النهضة المصرية 1370 .
طبقات النحويين واللغويين : أبو بكر الزبيدي ، مكتبة الخانجي 1373 .
طبقات علماء أفريقية : أبو العرب التميمي ، باريس 1333 .
تاريخ الطبري : محمد بن جرير ، دار المعارف 1385 .
تاريخ اليعقوبي : اليعقوبي ، المكتبة الحيدرية 1384 .
مروج الذهب : المسعودي ، الجامعة اللبنانية 1399 .
كتاب العبر : ابن خلدون ، دار الكتاب العربي 1371 .
كتاب المعارف : ابن قتيبة ، المطبعة الإسلامية .
فتوح مصر واخبارها : ابن عبد الحكم ، مكتبة المثنى مصورة طبعة ليدن .
الإصابة : ابن حجر ، مطبعة السعادة 1328 .
البيان المغرب : ابن عذارى ، الدار العربية للكتاب 1383 .
أسد الغابة : ابن عبد البر ، المكتبة الإسلامية بطهران 1377 .
الاستيعاب : ابن عبد البر ، مكتبة نهضة مصر .
الكامل في التاريخ : ابن الأثير ، دار الفكر بيروت 1398 .

المختصر في أخبار البشر : أبو الفداء ، المطبعة الحسينية 1325 .
معالم الإيمان : الدّباغ : مطبعة السنة المحمدية ط[٢] 1388 .
تكميل الصلحاء والأعيان : ابن صالح الكناني ، المكتبة العتيقة تونس 1370 .
وفيات الأعيان : ابن خلكان ، النهضة المصرية 1367 .
كتاب السير : أبو سعيد الشماخي ، المطبعة البارونية مصر 1320 .
ابن بسّام : ابن بسام التنتريني ، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1358 .
جامع بيان العلم وفضله : ابن عبد البر ، إدارة الطباعة المنيرية 1346 .
فضائل الأندلس : ابن حزم ، دار الكتاب الجديد 1387 .
المعجب في أخبار المغرب : عبد الواحد المراكشي ، المكتبة التجارية 1368 .
جذوة المقتبس : أبو عبد الله الحميدي ، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية 1371 .
أليس الصبح بقريب : محمد الطاهر بن عاشور ، الشركة التونسية للتوزيع 1388 .
ورقات : حسن حسني عبد الوهاب ، مكتبة المنار تونس 1385 .
ديوان أبي نواس : مطبعة مصر 1373 .
تاريخ الشعر العربي : نجيب محمد البهبيتي ، دار الكتب المصرية 1369 .
الأدب الأندلسي : أحمد هيكل ، مكتبة الشباب 1378 .
تاريخ النقد الأدبي بالاندلس : محمد رضوان الداية ، دار الأنوار بيروت 1388 .
ضحى الإسلام : أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية 1376 .
الأغاني : الأصفهاني ، دار الكتب المصرية .